مأزق العراقيين والحلول الأربعة

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

في العراق، فقط، يحدث هذا النوع من المسرحيات السياسية الغريبة والشعب ساكت ويتفرج وكأن معارك المصير هذه بين جماعة السلاح الخاسر في الانتخابات والسلاح الفائز لا تعنيه ولا علاقة فيها لحاضره وغده من قريب أو بعيد.

فمقتدى الصدر، وهو الفائز الأكبر في الانتخابات، يشترط أن تُلقي الفصائل سلاحها إن أرادت أن تشارك معه في حكومته القادمة، متذرعا بالشرعية الدستورية التي منحتها لتياره صناديق الاقتراع.

وللبرهنة على جديته في حصر السلاح بيد الدولة، أعلن عن حل واحدةٍ من ميليشياته العديدة "لواء اليوم الموعود" وغلق مقراتها، واصفاً الخطوة بأنها "بادرة حسن نية".

من جانبها رفضت الفصائل التخلي عن سلاحها، مبررة ذلك بأنه سلاح مقاومة "وطنية" مخصص لمحاربة الوجود الأميركي في العراق.

ثم طلبت أن تسلم قوات البيشمركة الكردية سلاحها أولا، وأن تعود إلى إمرة القائد العام للقوات المسلحة.

بالمقابل رفضت حكومة إقليم كردستان العراق ذلك، وقالت إن الدستور الفيدرالي هو الذي منحها استقلالية البيشمركة وشرعيتها.

أما أكثر الواقعين في هذا المأزق الخانق فهو مفوضية الانتخابات التي هي بالنتيجة مجموعة من قضاةٍ عراقيين بشرٍ مثلنا يخافون ويقلقون، وجدوا أنفسهم بين مطرقة سلاح الفصائل وإيران، وبين سندان سلاح التيار الصدري، فلا هم قادرون على ترضية الخاسرين ومعاداة الفائزين، ولا على ترضية الفائزين ومعاداة الخاسرين.

ومن أجل أن تخرج من مأزقها حاولت اللجوء إلى لعبة العد اليدوي لإضافة بضعة مقاعد ترضية هنا، وسحب بضعة مقاعد من هناك.

أكثر الواقعين في المأزق الخانق مفوضية الانتخابات وهي مجموعة من قضاةٍ عراقيين بشرٍ مثلنا يخافون ويقلقون وجدوا أنفسهم بين مطرقة سلاح الفصائل وإيران وبين سندان سلاح التيار الصدري

فقد أعلنت مؤخرا عن البدء بعمليات عد يدوي لـ870 محطة انتخابية جديدة. وقال عضو الفريق الإعلامي للمفوضية عماد جميل إن "مجموع الطعون الكلي بلغ 1436، واحدٌ وعشرون منها تم نقضها من قبل الهيئة القضائية و6 منها قبلت بنقض موضوعي، وستغير مقاعد الفائزين في البرلمان الجديد".

وهذا ما جعل هادي العامري يتخذ من حيرة المفوضية ذريعةً لمطالبة المحكمة العليا بإلغاء نتائج الانتخابات، لاسيما وأن لهذه المحكمة سوابقَ من حالات الرضوخ لإرادة المسلحين. فقد أعلن أن التحالف الذي يمثله قدم إلى المحكمة الاتحادية "أدلة كافية" لإلغاء نتائج الاقتراع.

بالمقابل ندد مقتدى الصدر بالتدخلات في عمل مفوضية الانتخابات، مبينًا أنها تبغي تعطيل حكومة الأغلبية.

وقال "إننا، وبكل فخر واعتزاز، إذ نُعلن عن نزاهة عمل المفوضية المستقلة للانتخابات ودقة مهنيتها في كل تفاصيل عملها فإننا نرفض التدخل بعملها من جهة، ونؤكد على سلامة أفرادها والمنتمين إليها من جهة أخرى (...) كما لا ينبغي التدخل في عمل القضاء والمحكمة وفي تصديقها على النتائج التي يُريد البعض تغييرها ليتمكنوا من تعطيل حكومة الأغلبية التي استاؤوا من بوادر إشراقاتها".

وفي هذه الأجواء الملبدة والاحتقان والتزاحم الذي ليس فيه لمصلحة الوطن ولا المواطن مكان تدعو كتائب سيد الشهداء إلى التطوع، ثم تعلن عن بلوغ عدد المتطوعين 23 ألفا. وقال المتحدث باسمها إن سبب هذا التطوع هو الانسحاب الأميركي من العراق، وليس دعوة مقتدى الصدر الأخيرة إلى نزع سلاح "المقاومة".

وأشار إلى أن "كل الجهود الدبلوماسية لم تنفع بإخراج القوات المحتلة، لذا لم يبقَ سوى استخدام السلاح، وهناك رسالة واضحة من الجانب الأميركي بأنهم لن يخرجوا، لذا نحن نعمل على التعبئة من أجل أن نكون مع الموعد الذي فرضه المفاوض العراقي لانسحاب تلك القوات".

ويشير المأزق الذي وضعت نفسَها فيه أطراف النزاع العراقي الذي أشعلته الانتخابات الأخيرة إلى إمكانية الخروج منه ولكن بواحدة من أربع صيغ محددة ليس لها خامس: إما إلغاء نتائج الانتخابات، أو تنازل الفائزين عن فوزهم، أو قبول الخاسرين بخسارتهم، أو الحرب اللازمة بين الجبهتين، جبهة الفصائل الموالية لإيران، ومعها النظام الإيراني غير المستعدّ لخسارة أذرعه المسلحة في العراق، والمتعاطفون معها من ضباط الجيش والأمن والمخابرات، بالإضافة إلى جمهور المستفيدين من هيمنة سلاحها على السياسة والأمن والاقتصاد، وبين جبهة التيار الصدري، ومعه الذين ارتبطت مصالحهم ومناصبهم ومكاسبهم بحكومة مصطفى الكاظمي وبقيادته للقوات المسلحة والمخابرات، مع جمهورٍ كبيرة من المواطنين الذين يتوقع أن يهبوا للتطوع لمقاتلة الفصائل خوفا من انتصارها وما يستتبع الانتصار من انتقام.

والمؤكد أن أي واحدٍ من هذه الحلول الأربعة الأشبه بالمعجزة لن يكون بردا ولا سلاما على العراقيين.

ويجري هذا كله علنا في العراق والثلاثون مليونا من العراقيين والحكومة والقيادة العامة للقوات المسلحة ودول الجوار ودول العالم الصديقة في غياب عجيب.

ألم نقل إن ما يحدث في العراق لا يحدث في غيره، منذ مئات السنين؟

هل تنشب الحرب الشيعية – الشيعية؟

د. باهرة الشيخلي
كاتبة عراقية

يحتدم صراع حاد بين التيار الصدري والميليشيات الولائية بعد دعوة زعيم التيار الصدري في العراق مقتدى الصدر يوم الثامن عشر من نوفمبر إلى حل الفصائل المسلحة وتسليم سلاحها للحشد الشعبي.

دعا الصدر خلال كلمة متلفزة "إلى حل الفصائل المسلحة أجمع ودفعة واحدة، وتسليم سلاحها كمرحلة أولى للحشد الشعبي عن طريق القائد العام للقوات المسلحة".

مقابل ذلك، دعا قيادي في هذه الميليشيا إلى التطوع للميليشيات، في خطوة وصفها مراقبون عراقيون بأنها علامة ضعف.

إن من غير المفهوم أن يقف الصدر ضد الميليشيات وهو يمتلك ميليشيا سرايا السلام المنبثقة عن ميليشيا جيش المهدي التي فعلت الأفاعيل بالعراقيين، كما أن من الغريب أن يخاطب الصدر "القوى السياسية التي تعتبر نفسها خاسرة في الانتخابات" داعياً إياها إلى مراجعة نفسها لإعادة ثقة الشعب بها لأن ما تفعله سيزيد من نفور الشعب منها، مع علمه أن الشعب قاطع الانتخابات التي وصفها بالنزيهة بنسبة كبيرة فاقت الـ80 في المئة.

العراقيون يتخوفون الآن من صدام عنيف بين الميليشيات الولائية والتيار الصدري مما ستنعكس تداعياته على حياتهم وأرواح أبنائهم، ما يعني تحقق توقعات المراقبين قبل سنوات بنشوب حرب شيعية – شيعية، وهو عين ما أشار إليه الباحث والناشط السياسي الدكتور شاكر كتاب من أن الصراع بين هذه القوى كان متوقعاً أن يحدث يوماً ما بسبب طبيعة العلاقات التي كانت تربطها والتي لا تزال قائمة بين بعضها الآخر، واصفاً الكتل السياسية الحالية بأنها تجمعات بشرية نشطة لكنها بعيدة عن رؤى بناء الدولة.

التوجهات المتعلقة بالسلطة والمال والسلاح يمكن تحقيقها بجهد معين، لكن ليس بالجهد نفسه يمكن الحفاظ عليها كإنجاز ضيق أو كمحصول لا بد أن ينتهي يوماً ما أو أن تتقاطع المصالح حولها فتقع الخلافات لتبدأ الصراعات بشتى أنواعها من دون أن تستبعد أسوأ ما فيها وهو شكل المواجهات العنيفة، ولا يظن أحد أن هناك خط رجعة عن هذه الخلافات بخاصة إذا انتقلت إلى صراعات، وهي الآن كذلك، لكن القصد أن هناك خشية جدية من أنها تتطور نحو حرق اليابس والأخضر فتنعكس على أمن العراق وشعبه واستقراره.

يرى العراقيون في ظل محنتهم التي تتزايد منذ احتلال بلادهم أن الميليشيات الولائية والحشد الشعبي وجهان لعملة واحدة، وأن مرجعهما واحد هو الحرس الثوري الإيراني، مع أن الحشد بدأ بإصدار المرجع الديني الشيعي آية الله علي السيستاني في أوائل يونيو 2014 فتوى تدعو كل من يستطيع حمل السلاح إلى التطوع في القوات الأمنية لقتال مسلحي تنظيم الدولة الإسلامية وتجيز التعبئة الشعبية لدرء خطر هذا التنظيم، وهو ما وصف فقهيا بـ"الجهاد الكفائي".

لكن ممارسات الحشد لم تختلف أبداً عن ممارسات الميليشيات الولائية، وأصبح هو الآخر عقبة كأداء في وجه بناء دولة مدنية في العراق تحقق له الاستقرار والتقدم ولشعبه الأمان.

ثم إن هناك صراعاً بين الميليشيات نفسها، التي هي برغم خلافاتها تابعة كلها، كما قلنا، لإيران وتقاد منها مما يجعل سؤالاً يفرض نفسه هو: لماذا لا توحد إيران ميليشياتها في العراق التي فاقت أعدادها العشرات وتجعلها ميليشيا واحدة بدلا من إبقائها فصائل مبعثرة؟

سواء حدث صدام بين الفصائل والكتل الشيعية أم لم يحصل فإن الخاسر الوحيد في ذلك هم العراقيون الذين يتعين عليهم أن يبحثوا عن طريق للخلاص ويمسكوا زمام بلادهم بأيديهم

يبدو أن هناك أكثر من سبب يمنع إيران من فعل ذلك، كما يرى باحث سياسي آخر هو طلال بركات، منها توزيع الأدوار بين الفصائل حسب المهمات والواجبات التي تسند إلى كل فصيل وفق الأوامر التي يستمدها الفصيل من المسؤول الإيراني، بمعنى أنه عندما يقوم فصيل معين بعمل إجرامي في مكان ما يوجه الاتهام إلى ذلك الفصيل من دون المساس ببقية الفصائل، كما وجدنا في الضربات التي وجهت إلى السفارة الأميركية أو محاولة اغتيال رئيس الوزراء مصطفى الكاظمي والتي غالباً ما كان الاتهام بفعلها ينحصر بحزب الله أو عصائب أهل الحق وليس الفصائل كلها، بل فقط الفصيل الذي نفذ الفعل، وبذلك تسلم بقية الفصائل من الاتهام برغم أن جميعها تأتمر بأوامر إيران.

إن ما يقوله بركات يعني أن الفصائل كلما تعددت تعددت أدوارها وصار هذا الفصيل يوصف بأنه معتدل وذاك الفصيل بأنه متشدد والآخر رافض لسلوك معين حسب التبعية والولاء، فهناك فصائل تبعيتها المطلقة لولاية الفقيه ومنها من تتبع السيد السيستاني أو سواه من المراجع، كما هي حال أغلب فصائل الحشد الشعبي، رغم أن جميعها تحت قيادة الحرس الثوري الإيراني، مثلما يفعل مقتدى الصدر عندما يظهر أنه يغرد خارج السرب الإيراني ويوحي للناس بأنه غير راض عن فعل وإذا به ينقلب، فجأة، ويتراجع عن مواقفه وعلى غفلة تجده قد غادر العراق إلى طهران.

هذه خطة مدروسة لخلق حالة من القنوط واليأس ليس فقط لدى أتباعه، وإنما لدى من زرع في قلبه الأمل لكي يعطي انطباعاً للآخرين، برغم قوة تياره، أنه لا يستطيع الانسلاخ من العباءة الإيرانية كما هو حال الفصائل السياسية والمسلحة كلها. والسبب الثاني خشية إيران من توحيد صفوف الميليشيات لكي لا تكون لها قيادة موحدة قد تتمرد يوماً عليها، لذلك جعلتها فصائل متعددة يسهل إحكام السيطرة عليها ويسهل تأديب من يحاول الخروج عن عصا الطاعة من خلال الإيعاز للفصائل الأخرى بتأديب من لا ينقاد لأوامر الولي الفقيه بنحو كامل، وهذا ما كان يردده قاسم سليماني عندما يريد تأديب فصيل معين من الفصائل حيث يهدده بالقول "سوف أطلق كلابي عليكم"، وهذا يثبت أن جميع فصائل الحشد الشعبي تحت إمرة إيران شاءت أم أبت.

هذا ما يجعل بعض المحللين السياسيين والمراقبين المتابعين للشأن العراقي يستبعدون، برغم المناكفات والتدافع على المناصب بين القوى الشيعية المتنافسة، أن يحدث صدام عنيف بينها، فمن يتسلم منهم المنصب سيحفظ مقامات الآخرين وحصصهم، فالجميع متفق على ألا تصل الخلافات بينهم إلى حد النزاع الذي يفقدهم الحكم والمال، كما أن قائد الحرس الثوري الإيراني إسماعيل قاآني يرتب الأوضاع حسب ما تقتضيه مصلحة إيران وليس مصلحة العراقيين.

ليس مستبعداً أن يحدث صدام محدود في المعسكر الشيعي متى رغبت إيران بذلك، لكنهم الآن يبحثون عن حلول خبيثة لتعويض الخاسرين عن طريق رفع عدد النواب إلى 400، وإضافة العدد الذي يزيد على العدد الحالي إلى الخاسرين بغض النظر عن التكلفة المالية التي تترتب عن ذلك.. إنهم يعيشون ديمقراطية خاصة لا يحكمها قانون وعلى أية حال لا تزال إيران اللاعب الأساس في حسم الأمور.

وإذا حدث الصدام بين الفصائل والكتل الشيعية أم لم يحصل فإن الخاسر الوحيد في ذلك هم العراقيون الذين يتعين عليهم أن يبحثوا عن طريق للخلاص مما هم فيه ويمسكوا زمام بلادهم بأيديهم.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk